1ـ تمهيد

تمثل دراسة تاريخ السياحة والسفر أهمية خاصة للدارسين الأكاديميين والعاملين في مجالات السياحة المختلفة، فضلا عن أنَّ دراسة تاريخ تلك الصناعة كغيرها من أوجه النشاط الإنسانى تمثل قاعدة أساسية للتطوير. ولا شك أنَّه توجد دروس مستفادة من الماضى وما زالت قابلة للاستخدام في الحاضر. وثمة أهمية لدراسة التاريخ أنَّ شيئا واحدا نتعلمه هو أنَّ تجارة السياحة أو تجارة أعمال السياحة Business of tourism منذ ثلاثة آلاف عام تشابه في كثير من خصائصها سياحة الوقت الحاضر؛ فالعديد من الخدمات والإمكانيات المتاحة (التسهيلات) Facilities وأسباب الراحة وإمكانات الاستمتاع Amenities التى تتطلبها سياحة الحاضر، كانت متاحة منذ آلاف السنين وإنما في صورة بدائية؛ مثل خدمات الإقامة، والأغذية والمشروبات، والمرشدين وكذلك محلات السلع التذكارية Souvenir shops.

وبالرغم من أنَّ الزيادة المطردة في أعداد السائحين على مستوى العالم، والتى تسمى سياحة الكم أو السياحة الكثيفة Mass tourism هى إحدى الظواهر الشائعة التى انتشرت بعد الحرب العالمية الثانية، بل أصبحت من أكثر الصناعات العالمية أهمية، فإنَّ العديد من القراءات والمراجع تشير إلى أنَّ السياحة إحدى الظواهر والأنشطة البشرية على مر عصور التاريخ. وتعود أقدم صور سياحة وقت الفراغ (الترفيه) Leisure tourism إلى عصور الإمبراطورية المصرية والبابلية. حيث سافر السائحون الإغريق منذ القرن الثالث قبل الميلاد لزيارة مواقع الآلهة

بغرض التبرك والاستشفاء Site of healing Gods. وكانت أثينا بحلول القرن الخامس قبل الميلاد منطقة سياحية هامة للمسافرين الذين يرغبون في زيارة المناطق أو المشاهد الرئيسة Major sights مثل الإكروبوليس والخانات الملحقة بالمعابد. وشُيِّدت الخانات Inns المجاورة للمعابد في معظم الأحيان في المدن الكبيرة والموانئ البحرية لتفي باحتياجات المسافرين. وكان معروفا عن مدراء الفنادق ومُلاَّك الخانات آنذاك صعوبة التعامل وافتقارهم القدرة على التعامل الطيب، وكانت الخدمات التى تُقَّدم بُدائيَّة وبسيطة.

2ـ كتابات هيرودوت Herodotus والفيلسوف بلوتارش Plutarch

تعتبر كتابات هيرودوت Herodotus والذى توفي فى نحو عام 425 قبل الميلاد من أهم مصادر المعلومات التى نعرفها في تاريخ السفر والسياحة. ويُروى أنَّه أول من كتب عن السفر والسياحة على مستوى العالم، حيث كان كثير السفر والانتقال، واعتاد أنْ يسجل - مع بعض التحفظ - القصص الطويلة التى يخبره بها المرشدون، ووضح أنَّ هناك اختلافا في دقة المعلومات التى كان يتلقاها من المرشدين وجودتها.

وكتب الفيلسوف بلوتارش Plutarchـ توفى فى عام 125 ق.م. ـ يشكو من أنَّ المرشدين كانوا يصرون على كثرة الكلام حول النقوش Inscriptions والكتابات على الأضرحة Epitaphs الموجودة في الأماكن الأثرية متجاهلين بذلك تساؤلات السائحين، وكانوا يتصرفون كذلك بغرض اختصار مدة الرحلة أو الزيارة. وتضمنت كتب الإرشاد التى صدرت في القرن الرابع قبل الميلاد المناطق السياحية المعروفة مثل أثينا وإسبارطة، وطروادة. وظهر الإعلان السياحى عام 400 ق.م تقريبا؛ وفي شكل لوحات إرشادية لإرشاد الزائرين إلى الحانات والخانات Wayside Inns. ويبدو أنَّ السفر حظى على أهميته المناسبة فقط في عصر الإمبراطورية الرومانية.

3ـ السياحة خلال العصور

اضطر الإنسان للسفر منذ العصور الأولى Early times إما تحت ضغط الجوع

والحاجة للانتقال أو الهروب من الخطر إلى أماكن أكثر أمنا، ولأن الإنسان أيضا بطبيعته شغوف لمعرفة ما يدور حوله في عالمه وفي الأماكن الأخرى حيث يرغب في معرفة خصائص غيره من المجتمعات وثقافاتهم وعاداتهم وكذلك دراسة عالم الحيوان والنبات ومعرفته. وكانت كل هذه الأمور ومازالت من أهم دوافع الإنسان للسفر والانتقال والذى يصل عمره إلى قرابة المليون سنه. وتوجد العديد من النظريات التى تشرح دوافع العديد من الرحلات المدهشة، إلا أنَّ أكثرها قبولا تلك التى تُعزى للبحث عن المأكل والهروب من المخاطر. وتوجد إحدى النظريات التى تربط العلاقة بين هجرة الطيور وهجرة الإنسان، حيث إنَّ شغفه لمعرفة من أين تأتى الطيور وأين تذهب كان دافعا أساسيا من دوافع الانتقال والسفر. ويؤكد ذلك حالياً ظهور سياحة مراقبة الطيور Bird watching وانتشارها ، ويُستدل من ذلك على أنَّ الإنسان الأول كان قادرا على السفر لمسافات طويلة تحت الظروف السائدة آنذاك.

4ـ السفر والسياحة عند السومارين والفينيقيين

لعب اكتشاف العملة أو النقود واستخدامها بواسطة السومارين وتطور التجارة في حوالى عام 4000 ق.م دورا هاما في ما يسمى بظاهرة العصر الحديث للسفر Modern era of travel. والسوماريون هم أصحاب إدراك فكرة النقود الأوائل Grasped the idea of money حيث استخدموها في مبادلاتهم التجارية، واختراع حروف الكتابة القديمة (الخط السمارى Cuneiform writing) واختراع الدراجات أو العربات المتحركة على عجل Wheel. ويعزى لهم الفضل في تأسيس أعمال السفر بشكل عام ومنتظم. وتم تنظيم الرحلات النيلية في مصر منذ حوالى 5000 عام. و قامت الملكة حتشبسوت Queen Hatshepsut بأول رحلة تاريخية لأغراض السلام والسياحة إلى بلاد القرن الأفريقى Punt وذلك في عام 1490 ق.م، وتم تسجيل وصف هذه الرحلة على حوائط معبد الدير البحرى بالأقصر. ومع ذلك فإنَّه ربما كان الفينيقيون Phoenicians أول رحالة حقيقين لأغراض التجارة

بمفهومها الحالى حيث انتقلوا من مكان لآخر كتجار. وكانت أوائل رحلات السفر في الشرق والهند والصين لأغراض تجارية أيضا.

5ـ السفر عبر المحيطات

من بين الرحلات البحرية المدهشة تلك التى كانت بين مجموعة الجزر الموجودة في وسط المحيط الهادى ووصلت الى منطقة الأقيانوسية Oceanic حيث استخدمت قوارب صغيره مصنوعة من جذوع الأشجار لا يزيد طولها على 40 قدماً، واستخدمت للإبحار من جنوب شرق آسيا وتتجه جنوبا وشرقا خلال ما يسمى الآن ميكرونيزيا Micronesia (جزر صغيرة تقع شرقى الفيلبين) عبر المحيط الهادى إلى جزر ماركويساس Marquesas وجزر أرخبيل توامواكو Tuamotu Archipelage وجزر سوسايتى Society. وفي عام 500 بعد الميلاد سافر البولنيزيون Polynesians من جزر سوسايتى Society Islands إلى هاواى لمسافة قدرها ما يقرب من 2000 ميل. وكانت تلك الرحلات الملاحية تعتمد على مواقع الشمس والنجوم والسحب Ocean swells ومواكب هجرة الطيور ولا شك فى أنَّ السفر في البحار لتلك المسافات آنذاك كان مدهشا وخاصة إذا وضعنا في الاعتبار مشاكل التزود والحصول على الماء والغذاء.

6ـ السفر بين شعوب البحر المتوسط

كان السفر في مهد الحضارة الأوروبية القديمة لأغراض التجارة والتعليم والعلاج والأغراض الدينية. وتطور ذلك بشكل كبير منذ عصوره الأولى، وتوجد العديد من الدلالات والكتابات المرجعية في كتاب العهد القديم Old Testament على انتشار بيوت الرحالة Caravans والتجار. وسافر قدامى اليونانيين لمشاهدة الألعاب الأولمبية منذ عام 776 ق.م ، وأدى ذلك إلى زيادة حجم الأعمال الخارجية Peripheral business لاستيعاب إقامة المشاركين أو المشاهدين أنفسهم Spectators بالإضافة إلى غيرهم من المسافرين. وحتى اليوم فإنَّ الألعاب الأوليمبية Olympic games وغيرها من الأحداث الرياضية، مازالت من

أكبر المغريات أو الجاذبات السياحية وخاصة مسابقات كرة القدم سواء على المستويات المحلية أو القومية أو الإقليمية أو الدولية. وأسهم قدماء الرومان بقسط كبير في تاريخ السياحة، وكان ثراء الإمبراطورية الرومانية وضخامتها دافعاً أساسياً للسياحة. وبذلت إدارة الإمبراطورية جهدا كبيرا في بناء شبكة كبيرة ومتميزة من الطرق لتسهيل السفر إلى مسافات تصل إلى 100 ميل في اليوم باستخدام الحصان. وسافر الرومان أيضا لمسافات طويلة لزيارة المعابد الشهيرة في منطقة البحر المتوسط وخاصة أهرمات مصر وآثارها (نصبها) Pyramids and monuments of Egypt. وكانت كل من اليونان وآسيا الصغرى (الأناضول) مقاصد سياحية للكثيرين حيث كانتا تعرضان وتُقدمان الألعاب الأولمبية، والحمامات الطبية Medicinal baths، ومنتجعات الشواطئ والمهرجانات ومسابقات المصارعة وغيرها من مسابقات ألعاب القوى Athletic competition وفنون المسرح وغيرها من صور التسلية والاستمتاع. وصاحب انهيار الإمبراطورية الرومانية وتفككها تدهور في السياحة، حيث انخفضت أعداد الأثرياء ومستوى الثراء وانخفض مستوى جودة الطرق وانتشر اللصوص وقطاع الطرق والسفلة مما جعل السفر آنذاك غير آمن. ولا يختلف سائحو اليوم كثيرا عن سائحى عصور الإغريق والرومان، حيث إنَّ سائحى اليوم كسابقيهم لا يريدون السفر إلى أماكن سيئة السمعة وغير آمنة.

7ـ السفر عند الأوربيين

كان لتدهور الإمبراطورية الرومانية أو سقوطها في القرنين الرابع والخامس الميلاديين الأثر السيئ الأكبر على السفر والسياحة والاستمتاع في أوروبا. وأثناء العصور السوداء (من سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في عام 476 بعد الميلاد حتى بدْء العصر الحديث Modern Era عام 1450 ميلادية) لم يكن يسافر إلا الشخص المقدام المغامر حيث كان السفر في هذه الحقبة غاية في الخطورة. وفي نهاية العصور المظلمة كان السفر مقصوراً على رحلات الحجاج الأوروبيين الذين كانوا

يسافرون لأغراض دينية في داخل القارة. إلى أنْ ظهرت وانتشرت الرحلات الكبرى Grand Tours في القرنين السابع عشر والثامن عشر بعد الميلاد، وكان يقوم بها الدبلوماسيون ورجال الأعمال وأبناء طبقة الأغنياء الذين كانوا يسافرون خصيصا إلى مدن إيطاليا وفرنسا للدراسة وتعلم اللغات والتعرف على معالم الحضارة. وصارت الرحلات الكبرى بعد ذلك بمثابة تقليد وسببا للتباهى Fashionable للدارسين في باريس وروما وغيرهما من المراكز الثقافية. وبينما كانت الرحلة الكبرى في البدء لأغراض التزود بالخبرة التعليمية Educational experience فإنَّها تعرضت بعد ذلك للنقد حيث انتهى بها الأمر إلى أنْ صارت ببساطة مسعى للنزهة والاستمتاع. ومازال مصطلح الرحلة الكبرى مستخدما حتى اليوم، بالرغم من أنَّ له تاريخا طويلا. ووصف John Jailhard في عام 1678 م في كتابه Compleat Gentlemen إحدى الرحلات الكبرى ومدتها 3 سنوات وأعد دليلا للمسافرين اشتمل على برنامجها الذى كان يتكون من الإقامة مدة طويلة في فرنسا خاصة في باريس وفي إيطاليا لزيارة كل من روما وفينيسيا وجينيف وفلورانس وميلانو ثم العودة عن طريق ألمانيا وهولندا أو ما يسمى بالبلاد المنخفضة Low countries عبر سويسرا. ورغم وجود خلافات كثيرة حول خط سير هذه الرحلة، كان ذلك هو أكثر الطرق شيوعا. وكان يعتقد دائما أنَّه ليس هناك الكثير الذى يجذب المشاهدين في العالم المتحضر آنذاك فيما عدا إيطاليا وفرنسا وهولندا حيث كان ما بعد ذلك عبارة عن مسطحات شاسعة وعرة شديدة البرودة.

8ـ السفر عند الأمريكيين

كان سكان أمريكا الأصليون في عصورهم الأولى يسافرون مشيا على أقدامهم وكانت المراكب أو الزوارق الصغيرة Small boats or Canoe تستخدم للسفر داخل البلاد، دائما من الشرق إلى الغرب. وبعد أنْ شُيِّدت الطرق انتشر السفر باستخدام مركبات السفر الجماعية أو العامة التى تجرها الخيول Stage Coach

وانتشرت ظاهرة السفر بعد الحرب الأهلية في أمريكا (1861-1865م). وأدى إنشاء السكك الحديدية عبر البلاد إلى انتشار ظاهرة السفر بين أفراد الشعب، وكانت أول رحلة عبر البلاد بالسكك الحديدية بين ولايتى يوتا وبرومنتورى عام 1891م. وقامت شركة Wells - Fargo بتأسيس أمريكان أكسبريس عام 1850م التى أصدرت أول صك للسفر والسياحة أو ما يسمى Travelers' check عام 1891م، ثم قامت بعد ذلك بتقديم العديد من الخدمات السياحية الأخرى وصارت من أكبر شاغلى الرحلات Tour Operator وأصبحت أمريكان اكسبريس معروفة على مستوى العالم بما يميزها من الشيكات السياحية وبطاقات الائتمان المصرفية Credit Cards والعديد من الخدمات المالية والسياحية. ولعل من أهم المشاهدات أو الأحداث Events في تاريخ السفر الأمريكي هو ضخامة حجم خدمات السفر التي قام بها الأمريكيون (ذكورا وإناثا) أثناء الحرب العالمية الثانية. حيث خدم في الجيش الأمريكى أكثر من 12 مليون فرد في الفترة من 1941 إلى 1945م وكان معظمهم مكلفين بالخدمة في أماكن تبعد مسافات طويلة عن أماكن إقامتهم مثل أراضى المعارك في أوروبا والهادى. وصار بعد ذلك السفر جزءا من حياة الأمريكيين وحدثت زيادة كبيرة في معدلات السفر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتشرت أيضا ظاهرة السفر بالطائرات والقطارات والأتوبيسات.